يسوع وسرّ الملكوت في متّى ١٣: خلاصة لتعليم الإنجيليّ في متّى ١-١٢

الأخت باسمة الخوري الأنطونيّة

مقدّمة

إنّ أمثال يسوع في الإنجيل بحسب القدّيس متّى، هي أمثال ملكوت الله – السماوات، كما أنّ الإنجيل الأوّل هو بحدّ ذاته إنجيل الملكوت، بحيث يشكّل سرّ ملكوت الله ملكوت السماوات الموضوع الأهمّ ومحور الحبكة السرديّة المتّاويّة؛ فعبارة «ملكوت السماوات» ترد ٣٧ مرَّة عند متّى، في حين لا نجده سوى مرّة واحدة عند مرقس أو لوقا. جعل متّى من ف ١٣ ملخّصًا جمع فيه مفهومه لسرّ «ملكوت السماوات»، عرضه من خلال أمثال تبدأ كلّها تقريبًا بعبارة «مَثَلُ ملكوت السماوات». فما هو سرّ هذا الملكوت؟ وماذا أراد متّى إبلاغه؟

لطالما كان الملكوت مرتبطًا بإيمان إسرائيل ورجائه، وقد حافظ الشعب على هذا الرجاء بفضل المزامير التي تنشد مجد الربّ وسيادته: «إعزفوا لإلهنا، اعزفوا لملكنا، إعزفوا لأنّ الله ملك الأرض كلّها» (مز ٤٧: ٧–٨). في المزامير المشابهة ينشد الشعب مجيء سيادة الله الملكيّة على الأرض كلّها، ويُغني تحقيق هذا الانتظار، بشكل يؤكّد ارتباط إيمانه بملوكيّة الله، برجاء مجيء الملكوت.

عَرَف هذا الانتظار أشكالاً مختلفة أيّام يسوع، أبرزها ثلاثة: انتظار رؤيويّ، يقوم على اعتبار الزمن الحاضر هو زمن الآلام والمصاعب والتعاسة والأخطار، والعيش بانتظار الانقلاب العظيم لهذا العالم الحاضر[1]، وانتظار

(١) نادرًا ما نقرأ في الرؤى والنصوص الرؤيويّة عن ملكوت الله، لكنّنا نجد فيها كلامًا عن الزمن

الغيورين الذين يؤمنون، كما الرؤيويّون، بالانقسام بين أبناء النور وأبناء الظلمة، ولكنّهم لا يقفون عاجزين في انتظار الملكوت، بل يساهمون في تحقيقه، ولو اضطرّهم ذلك إلى العنف والحرب[٢] والانتظار الفرّيسيّ الذي يرفض، كما الكتبة، إحلال الملكوت بالعنف[٣].

من الطبيعيّ إذًا أن تكون جماعة إنجيل متّى من المعتادين على هذه العبارة – الرمز، من خلال إطارها الثقافيّ الدينيّ. لكن، من غير السهل الإحاطة بمعرفتهم الدقيقة لهذا الموضوع، خاصّة بعد أن ارتبطت هذه الفكرة بالتقاليد والكتابات المتعلّقة بيسوع؛ فمفهوم «ملكوت السماوات» لم يكن عند هذه الجماعات الأولى فكرة فلسفيّة محدّدة ومؤكّدة المضمون، كما كان الحال مع الأحزاب والتيّارات المعاصرة، بل «رمزًا» معيوشًا في خياراتهم اليوميّة، وذلك استنادًا إلى الكتب المقدّسة اليهوديّة التي اعتبرت، كما المنحولات

الحاضر والزمن المستقبليّ. يقف الإنسان عاجزًا أمام هذا العالم الذي يدنو من نهايته، لكنّه يرجو أن يرسي الله الخلاص والعالم الجديد. أمّا اقتراب الانقلاب العظيم الذي يرافق مجيء الملكوت، فسيترافق مع الآلام والأوجاع التي سيتحمّلها الأبرار في فورة عنف أخيرة. كان ملكوت الله همّهم الأوّل يعطيهم الثقة والحماس لما يقومون به في رفضهم المساومات ومحاربتهم للفساد والمقاومة لإحلال الملكوت.

(٢) شكّل الغيورون حركة التحرير اليهوديّة منذ القرن الأوّل قبل الميلاد، وشعارها «غيرةٌ لشريعة الربّ». كان ملكوت الله همّهم الأوّل، يعطيهم الثقة والحماس لما يقومون به في رفضهم المساومات، ومحاربتهم للفساد، والمقاومة لإحلال الملكوت، وعرفت الحركة نجاحًا كبيرًا سنة ٦ ب.م.، عندما تحوّلت اليهوديّة إلى ولاية رومانيّة، فرفض هؤلاء دفع الجزية للإمبراطور الرومانيّ، دلالة على رفض سيادة هذا الإمبراطور على إسرائيل، وفضّلوا الموت على الاعتراف بالإمبراطور «الربّ» (κύριος)، لأنّ ذلك يعني خرقًا للوصيّة الأولى. قاد الغيورون مقاومة مسلّحة ضدّ الوثنيّين الذين لا شريعة لهم، وضدّ اليهود الخائنين، ليهيّئوا الطريق أمام ملكوت الله، فربطوا بين الوطنيّة اليهوديّة ورجاء ملكوت الله، لإيمانهم بأنّ كلّ شيء يؤول إلى سيادة الله الكاملة.

(٣) نقرأ في الأدب الربّينيّ عبارتين تتكرّران باستمرار هما «حمل نير الملكوت» و«سينكشف الملكوت»، ممّا يعني الاعتراف بملكيّة الإله الواحد، وقبول وصاياه، والحفاظ على شريعته؛ فالملكوت إذًا هو نير وواجب يفترض بالمؤمن الحفاظ عليه بحذافيره، حتّى ولو كان ثقيلاً. لكنّ هذا النير يبقى خيارًا حرًّا، فيمكن للإنسان «أن يرفض نير ملكوت الله»، ممّا يعني بأنّ الله لا يمارس سيادته على الأرض بطريقة تلقائيّة وأكيدة، وبالتالي يبقى ظهور الملكوت جزءًا من وساطة اليهوديّة الضروريّة.

وكتابات قمران والترجوم، أنّ هذه العبارة تدلّ على عمل الله في وسط شعبه، مع أنّ في هذه الكتابات معاني وأشكالاً متعدّدة للعبارة (كما في كتاب دانيّال، مثلاً، حيث يستعمل النبيّ عبارة «ملكوت السماوات» في ثلاثة طرق، يقصد من خلالها الدلالة على المملكة اليهوديّة السياسيّة الأرضيّة الأبديّة ٢: ٤٤؛ كما على مملكة الله الأبديّة ٣: ٣٣؛ ٤: ٣؛ ٣٤–٣٥؛ وعلى مملكة الملائكة التي ينضمّ إليها الأبرار بعد موتهم ٧: ١٨، ٢٧)[٤]، إضافة إلى إيمانهم بأنّ يسوع هو الملكوت الذي اقترب.

لكن على هذا الصعيد أيضًا، نجد بعض الصعوبات؛ فبعض المفسّرين الذين عملوا على موضوع مصادر الإنجيل، لفتوا النظر إلى أهمّيّة ما أنجزه ملكوت الله بشخص يسوع من انقلاب اجتماعيّ، في حين شدّد البعض الآخر على آنيّة هذا الحضور وعلى أبعاده المستقبليّة (مت ٨: ١١–١٢؛ لو ١٣: ٢٨–٢٩؛ مت ١٢: ٢٨؛ لو ١١: ٢٠).

من الجدير بالذكر أنّ الجماعة التي يتوجّه إليها متّى في إنجيله هي جماعة المؤمنين بالمسيح، في نهاية القرن الأوّل. كانت هذه الجماعة، أو بالأحرى هذه الجماعات، أقليّة هامشيّة في أنطاكية وسورية والجليل، تحيا، وفي ظنّها أنّها تعيش في زمن بين القيامة والمجيء الآخر. تتكلّم اللغة اليونانيّة المحكيّة، وتعرف الكتابات المقدّسة في اليونانيّة، كما تعرف التقاليد المتعلّقة بيسوع، تحترم التقاليد والعادات السائدة، وتعاني من الصعوبات من المجتمع السائد... ومن النزاعات القاسية جرّاء الانقسام مع الجماعة اليهوديّة. تأتي نصوص الإنجيل السرديّة لتخبرنا بما حدث، وتوضح هويّة هذه الجماعة وإيمانها ونموّها في معتقداتها على ضوء تعاليم الإنجيل.

فماذا كانت جماعة إنجيل متّى تفهم بعبارة «ملكوت السماوات»؟ وإن كان ملكوت السماوات هو محور الإنجيل، فما هو المضمون الذي كانت

(٤) تتطلّع مزامير سليمان (عدد ١٧) إلى المملكة الوطنيّة اليهوديّة؛ بعض المختصّين في الأدب الترجوميّ يرون أنّ عبارة «ملكوت الربّ» تدلّ على كشف الله عن حضوره وعن عمله في العالم.

الجماعة المتّاويّة تعطيه لهذا الموضوع؟ هل هو ملكوت أرضيّ منجَز (ماضٍ تامّ) تمّ بحضور يسوع؟ هل هو عمل إلهيّ آنيّ مرتبط بحضور يسوع الدائم؟ أم هو ملكوت مستقبليّ أبديّ يتشارك فيه المؤمنون بعد الدينونة الأخيرة؟

إنّ على معرفة هذا الاستعمال المتعدّد لعبارة «ملكوت السماوات» تترتّب أهمّيّة أساسيّة لدراستنا هذه؛ فمن وجهة نظر الكاتب، المعلّم الذي يتوجّه إلى جماعة معيّنة، لا بدّ من أن نأخذ بعين الاعتبار انتباهه إلى تفاعل هذه الجماعة مع النصّ، وكأنّه حاضر عند سماعها، يستبق ما يمكنها أن تطرحه من أسئلة فيجيب عليها، ويتفهّم ضرورة تقديم خلاصة واضحة لما يعلّم خاصّة في المواضيع الأساسيّة. هذا ما فعله متّى في الفصل ١٣.

ما هو مفهوم متّى لملكوت السماوات، وماذا أراد أن يوصل إلى جماعة إنجيله، وكيف توصّل إلى ذلك؟

«ملكوت السماوات»: توضيح للجماعة

أمام فوضى المعاني المتعلّقة بملكوت السماوات، حاول متّى، طيلة الفصول ١–١٢، إعطاء رمز «ملكوت» مضمونًا محدّدًا، بواسطة استراتيجيّات عدّة كالتكرار، والحوارات المتعدّدة، والتفسيرات، والأمثال، والجدالات حول اختلافات وجهات النظر، إلخ. تقود القارئ – السامع ليتخطّى فوضى المعاني والخيارات المختلفة، ويبلور مضمونًا واضحًا للعبارة الرمز «الملكوت».

من المؤكّد أنّ الكاتب يتوجّه في نصّه إلى جماعة يعرفها ويعرف تمامًا كيفية فهمها للأمور. في طريقة عرضه للنصّ، يعمل الكاتب عادة، على ربط فقراته بشكل يسمح للقارئ – السامع أن يتداخل ويتفاعل معه، وينمو ويتقدّم مع تقدّم الحبكة السرديّة، فكل نصّ في الإنجيل هو جزء لا يتجزّأ من كامل الإنجيل، يفهمه القارئ – السامع من خلال ربطه مع ما سبقه. هكذا يأتي الفصل ١٣ الذي درجت العادة على عنونته «أمثال الملكوت» ليبلور كلّ ما سبق حول هذا الموضوع ويوضحه.

ستة أمثال من سبعة في الفصل ١٣، تتعلّق مباشرة بـ «ملكوت السماوات» (١٣: ٢٤، ٣١، ٣٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧) وتبرز كلمة βασιλεία، «ملكوت» أو «مملكة» في الفصل ١٣ ست مرّات أخرى (١٣: ١١، ١٩، ٣٨، ٤١، ٤٣، ٥٢). لكنّ العبارة – الرمز «ملكوت السماوات» ليست غريبة عن قارئيّ متّى الذين رافقوا نصّه وتعمّقوا في المعنى الذي أعطاه للعبارة طيلة الفصول الإثني عشر الأولى حيث نجد العبارة ١٤ مرّة.

في هذا الإطار يأتي ف ١٣ بأمثاله وكأنّه تشديد وتأكيد لما فهمته جماعته من كلّ ما مرّ في ف ١–١٢. من خلال هذه الأمثال يكرّر متّى ويشدّد ويوضّح، ويتحدّى خبرة القارئين – السامعين أمام ما كانوا يعتقدونه ويفهمونه بعبارة «ملكوت السماوات».

القسم السرديّ الأوّل (١: ١–٤: ١٦)

يبدأ كاتب إنجيل متّى تربية سامعيه – قارئيه حول موضوع «ملكوت السماوات» منذ بداية إنجيله، فيعطي في الفصلين الأوّلين شكلاً محدَّدًا لرمز عمل الله وسط شعبه، قبل أن يورد العبارة الرمز «ملكوت السماوات» في ٣: ٢.

طفولة الملك

من خلال سلالة الافتتاحيّة يرسم الإنجيليّ لقرّائه – السامعين صورة لعمل الله وسط شعبه (١: ١–١٧)؛ فنصّ السلالة، كما هو معلوم، ليس سجلاًّ عن شجرة عائلة يسوع البيولوجيّة، بل برهانًا عن عناية الله...، وعن عمله بحسب مخطّطه لتاريخ الخلاص منذ الخلق. هذا ما يلفت الكاتب نظر جماعته إليه من خلال تشديده على إبراز ثلاثة أزمنة في هذا التاريخ: إبراهيم (١: ١ب–٢أ)، وداود (آ ٦)، والجلاء (آ ١١–١٢، ١٧)، عارض فيها الشعب وعود الله ومخطّطاته، لكن الربّ عمل فيها على خلاص شعبه بقوّة وأمانة.

ومن خلال الحدث السرديّ الأوّل في ١: ١٨–٢٥، الذي يمكن اعتباره حدثًا – مفتاحًا، يُطلِق حركة الإنجيل، نجد شرحًا لمعنى عمل الله وسط شعبه؛ فَحَبَل مريم بطفل، حَصَل بمبادرة من الله، وبعمله المباشر بواسطة الروح القدس (١: ١٨د، ٢٠د)، وليس بتدخّل بشريّ (١: ١٨ب–ج، ٢٣أ، ٢٥)؛ وأهداف الله بما يخصّ هذا الطفل، واضحة من خلال تفسير أسمائه؛ فقد طلب «ملاك الربّ» من يوسف أن يدعو الطفل «يسوع» ما يعني «يخلّص شعبه من خطاياهم» (١: ٢١)، ويشرح الكاتب أنّ الطفل يتمّم الوعد بالـ «عمانوئيل – الله معنا» (١: ٣٢)، وبتحقيق المهمّة الإلهيّة. إنّ في هذه التسمية تحديدًا لرسالة حياة يسوع وموته؛ وفي ذلك بالتالي تأكيد أنّ عمل الله وحضوره الذي اختبره الشعب من خلال دعوة إبراهيم، ومُلك داود، وكارثة السبي والخلاص منه، حضر الآن وانكشف في يسوع. من خلال هذا النصّ، أراد الإنجيليّ إفهام جماعته نظرة الله التي من خلالها يجب على الجماعة المؤمنة أن تدرك تعليم يسوع ومعنى أعماله من جهة، وما يقصده من استعماله لرمز «ملكوت السماوات» من جهة ثانية.

بعد عرض المشروع الإلهيّ، يتابع النصّ توضيح حدث حضور الله وعمله في يسوع حتّى ٤: ١٦من خلال التجاوب المتفاوت معه (٢: ١): فرح المجوس وعبادتهم (٢: ٢، ١٠–١١)؛ عمى الرؤساء الدينيّين الذين يعرفون الكتب، لكنّهم لا يفسّرونها بشكل صحيح، بعلاقتها مع يسوع، ولا يعملون بحسب معرفتهم (٢: ٤–٦)؛ وتفجير هيرودس لغضبه القاتل (٢: ١٦–١٨).

حمى الله الطفل يسوع، عمّانوئيل، من خطر العالم الخاطئ، بحسب مبادرته وأهدافه الخلاصيّة (٢: ١٣–٢٣)، ففهمت الجماعة أنّ المراجع الكتابيّة الأربعة (٢: ٦، ١٥، ١٨، ٢٣ب) هي تأكيد على أنّ أهداف الله الخلاصيّة انكشفت وتوضّحت من خلال هذه الأحداث، ومع تقدّم نصّ الإنجيل سيعمل الإنجيليّ على تعميق هذه المعرفة وتصحيحها وتحديدها.

في بداية الفصلين الأوّلين، بلوَر القرّاء – السامعون معنى عبارة «ملكوت السماوات» على ضوء ما كانوا يعرفون. وفي نهايتهما توضّح لهم معنى عمل الله وسط شعبه بيسوع، المسؤول عن تخليص الناس من خطاياهم، وعن إعلان حضور الله (١: ١٢، ٢٣). هكذا صار بإمكان القرّاء – السامعين فهم معنى «ملكوت السماوات» في كرازة يوحنّا المعمدان الصارخ: «اقترب ملكوت السماوات» (٣: ٢).

الملكوت وكرازة المعمدان

تظهر عبارة «ملكوت السماوات» للمرَّة الأولى في كرازة يوحنّا المعمدان، في قوله «اقترب ملكوت السماوات» (٣: ٢). يدلّ شكل العبارة – الرمز «ملكوت السماوات» إلى أنّ السماوات هي مصدر الملكوت وطبيعته. كانت الجماعة تعرف أنّ «السماوات» هي «عرش الله» (مز ١١: ٤؛ ١٤: ٢)، وهو ما يؤكّده مت ٥: ٢٤، ٤٥؛ ٦: ١، ٩، إلخ. يأتي الفعل «اقترب»، ἤγγικεν، في صيغة الحاضر الناجز الذي يدلّ على حدث تمّ في الزمان والمكان، لكنّ مفاعيله لا زالت مستمرّة في الحاضر. إنّ «ملكوت السماوات» الذي يعلن يوحنّا المعمدان أنّه «اقترب»، هو مُلكَ الله «يقترب». في إطار الفصلين الأوّلين فهم القراء – السامعون أنّ الفعل «اقترب» لا يعني عمل الله الملوكيّ أو الرؤيويّ الذي يوجّه الأنظار إلى أحداث مستقبليّة، بل هو دلالة على حضور الله في يسوع «عمّانوئيل».

صحيح أنّ متّى يستعمل لغة جماعته ولاهوتها، واستعماله المسيحانيّ لعبارة «ملكوت السماوات»، βασιλεία τῶν οὐρανῶν، ممّا يعكس معرفة وخبرة مألوفتَين لهذه العبارة عند جماعته. لكنّه في استعماله للعبارة في إطار الإنجيل، يسمح للجماعة بأن تضيف على الرمز اليهوديّ الذي استعمله المعمدان، المعنى الذي اكتسبه قرّاؤه – السامعون من الفصلين الأوّلين، على ضوء خبرتهم الروحيّة الشخصيّة. وهكذا يمكننا أن نعتبر بأنّ الجماعة لا بدّ

وأن تكون قد أشركت مع المعاني التقليديّة لهذا الرمز، الجديد الذي جاء به حضور الله، في يسوع المخلّص من الخطايا (١: ١٢، ٢٣).

طالب يوحنّا بالتوبة السريعة (٣: ٢)، بمعنى تغيير جذري على صعيد الحياة، فأراد متّى أن تفهم الجماعة ذلك كجواب بشريّ ضروريّ للتحضير لملاقاة يسوع. إنّ الانتظارات المسيحانيّة لعمل الله، تحقّقت في حضور يسوع. لخّص يوحنّا المعمدان مهمّة يسوع الآتية بنقطتين: عماد بالروح، وتحديد لمصير الإنسان عند الدينونة (آ ١١–١٢)، فأعلن بالتالي أنّ هذه المهمّات، المتعلّقة بالله وحده، تعود إلى يسوع. هنا أيضًا فهمت الجماعة أنّ «ملكوت السماوات»، يعني عطيّة الروح، وعمل الله وحضوره المخلِّص بيسوع، وهو ما أكّده خبر معموديّة يسوع.

في المعموديّة استجاب يسوع لإرادة الآب، وحمل المهمّة التي أوكله بها الله (رج. ١: ٢١، ٢٣؛ ٣: ١٤–١٥)، فحضر الروح مع يسوع (٣: ١٦)، وأعطى الله البرهان على ذلك من السماء (٣: ١٧).

في التجارب (٤: ١–١١) أظهر يسوع أمانته لرسالته كابن لله ورسوله (٤: ٣، ٦)، بمقاومته تجربة الشيطان الذي حاول إعادة تحديد رسالته وجعله رسوله. عرض أمامه «كلّ ممالك (βασιλείας) الدنيا ومجدها» (٤: ٨)، لكن يسوع رفض كلّ تقدماته، وبقي أمينًا لرسالته في كشف حضور الله – «ملكوته» (٤: ٨–١١؛ رج ١: ٢١، ٢٣).

وفي التجائه «إلى كفرناحوم في جليل الأمم» (٤: ١٢–١٦) تمّم الكتب، وأشرق النور على من هم في الظلمة (٤: ١٥–١٦). كانت جماعة الإنجيل تعلم أنّ الظلمة في الكتب المقدّسة اليهوديّة تعني الموت والدينونة، في حين يرمز «النور» إلى حضور الله المخلِّص (أش ٩: ١–٢)[٥]، ففهمت الخبر بالتالي

(٥) في أش ٤: ١٥ إضاءة إلى عمل الله الخلاصيّ في زمن «الظلال والظلمة» على حسب الوعود بحضور الله (أش ٧: ١٤، «عمّانوئيل»؛ ٨: ٨، ١٠، «الله معنا»). وتأتي إضافة «أشرق» (ἀνέτειλεν) في ٤: ١٦ (λάμψει ، أش ٩: ١) من أش ٥٨: ٨–١١ لتقدّم الحضور الإلهيّ على أنّه المظهر – المفتاح لخلاص الله.

كتركيز لمعنى حضور يسوع (رج ١: ١٨–٢٥): إنّه حضور الله الخلاصيّ القادر على تخليص الشعب من الدينونة. بعد هذا النصّ مباشرة يأتي الاستعمال الثاني لعبارة «ملكوت السماوات».

القسم السرديّ الثاني (٤: ١٧–١١: ١)

«... ٤: ١٧وبَدَأَ يسوعُ مِن ذلك الحِين يُنادي فيَقول: تُوبوا ، قدِ اقتَربَ مَلكوتُ السَّمَوات ...١١: ١ ولَمَّا أتمَّ يسوعُ وَصاياه لِتَلاميذِه الاثنَي عَشَر، ذَهبَ مِن هُناكَ لِيُعَلِّمَ ويُبَشِّرَ في مُدُنِهم».

يشكّل هذا القسم خطوة جديدة في المسيرة التي يقود فيها الإنجيليّ جماعته لفهم سرّ «ملكوت السماوات». في بدايته، بدأ يسوع رسالته العلنيّة بطلب التوبة، والإعلان أنّ «ملكوت السماوات اقترب» (٤: ١٧)، ثم دعا الصيادين ليتبعوه، فاستجابوا (٤: ١٨–٢٢)، وكرز بـ «إنجيل الملكوت βασιλεία »، وشفى المرضى (٤: ٢٣–٢٥).

فهمت الجماعة معنى كلمات يسوع وأعماله في هذا القسم، على ضوء ما عرفته عن رسالته في ما ورد في القسم الأوّل (١: ١–٤: ١٦). ففي كرازة يسوع عن «ملكوت السماوت» تذكير باستعمال يوحنّا لهذه العبارة الرمز في ٣: ٢ في كلامه عن يسوع الذي يكشف برسالته حضور الله الخلاصيّ (١: ١٢–١٦). إنّ دعوة يسوع للصيّادين (٤: ١٨–٢٢)، وكرازته وشفاءاته (٤: ٢٤) هي أيضًا كشفٌ لرسالته. في استراتيجيّته، قاد متّى جماعته لتفهم أنّ كلمات يسوع وأعماله جعلت حضور «ملكوت السماوات»، أي حضور الله الخلاصيّ، حقيقة متاحة للشعب من خلال شراكة جديدة مع كلّ من يتجاوب مع كلامه وأعماله.

تظهر عبارة «ملكوت السماوات» ثماني مرّات بعد ٤: ١٧ (٥: ٣، ١٠، ١٩(x٢)، ٢٠؛ ٧: ٢١؛ ٨: ١١؛ ١٠: ٧)، إلى جانب خمس عبارات بشكل مختلف: «إنجيل الملكوت» (٤: ٢٣؛ ٩: ٣٥)؛ «ملكوتك» (٦: ١٠)؛

«ملكوته» (٦: ٣٣)؛ «أولاد الملكوت» (٨: ١٢). من خلال هذا التكرار، ومن خلال تعدّد أشكال الاستعمالات، والأطر التي ترِد فيها (التطويبات، والأعاجيب، والأخبار، والجدالات...)، يلفت الإنجيليّ نظر جماعته لأهمّيّة هذه العبارة – الرمز، ويكرّر توضيح الأبعاد التي رسمها لها في ف ١–٢.

إنّ أعمال يسوع عي إعلان لحضور «ملكوت السماوات» النهائيّ. هذا الملكوت الذي حضر بيسوع، والذي رمزت دعوته للصيادين الأربعة إلى تحقيقه (٤: ١٨–٢٢)، أحدث انشقاقًا في تركيبة العائلة الاقتصاديّة والاجتماعيّة؛ فاتّباع هؤلاء ليسوع يعني أهدافًا جديدة وأوّلويات جديدة. والحدث يعني بالتالي خلقًا لجماعة جديدة متمحورة حول يسوع، تشكّل صورة يقدّمها الإنجيليّ لجماعته ليشجّعها على متابعة قراءة إنجيله الهادف إلى وصف دخول الملكوت في حياة البشر الذين يقبلونه وتأثيره، واكتشاف ما يترتب على اتّباعه.

هذا ما نجده في عظة الجبل (ف ٥–٧): تعليم للجماعة حول الحياة التي يخلقها «ملكوت السماوات» من خلال التطويبات (٥: ٣–١٢)، والمسؤوليّات (٥: ١٣–٧: ١٢)، والمتطلّبات المستقبليّة للشراكة الأبديّة (٧: ١٣–٢٧).

ومن خلال ف ٨–٩ تفهم الجماعة توسّع حضور الله الخلاصيّ، وتغلّبه على الأمراض والطبيعة والشياطين وخطايا الشعب والمتديّنين، ووقوفه ضدّ الفروقات الإتنيّة والجنسيّة... والموت. ثمّ يأتي في ف ١٠ عرض لرسالة تلاميذ يسوع ودورهم في إعلان حضور الملكوت، وتحقيق أعماله وقوّته الخلاصيّة (١٠: ٧، ٨؛ رج ٤: ١٧، ١٩).

في نصّ التطويبات تظهر عبارة «ملكوت السماوات» في التطويبة الأولى (٥: ٣) حيث يطوّب يسوع فقراء الروح، الذين يفتقرون إلى الممتلكات، لكن لهم القوّة والرجاء واختبار حضور الله الخلاصيّ. أمّا التطويبة الثامنة (٥: ١٠) التي تختصّ بالمضطهدين على البرّ (ἕνεκεν δικαιοσύνης)، وإعلان

حضور الله الخلاصيّ وملكوته المعلَن بيسوع في حياتهم اليوميّة (ἐστιν، ٥: ١٠ب).

تدلّ صيغة الحاضر في ٥: ٣ب (إنّ لهم الآن، ἐστιν) أنّ الملكوت حاضر منذ الآن (كذلك الأمر في ٥: ١٠)، وتُظهر الصيغة المستعملة في ٥: ٤–٩ أبعادًا مستقبليّة لإرادة الله. في تطويب فقراء الروح تذكير للجماعة بأنّ «ملكوت السماوات» يُلغي القيم المعتادة والنظم الاجتماعيّة السائدة، ليخلق جماعة ذات أبعاد وقيم اجتماعيّة مختلفة. في هذه التطويبة تأكيد وتذكير لما قام به يسوع في ٤: ٢٤ من شفاءات للمسكونين، والمرضى، والمشلولين، هؤلاء الذين يفتقرون عادة إلى الإمكانات المادّيّة والدعم الاجتماعيّ؛ فلطالما فُهمت الأمراض كنتيجة للعنة الله، وسيطرة لقوّة الشرّ والخطيئة عليهم، وها إنّ شفاءهم يأتي كعلامة لعمل الله الخلاصيّ فيهم، أي لحضور ملكوته: إنّ لهم ملكوت السماوات؛ فهي في الحقيقة تذكيرٌ بأنّ اختلاف طرق الحياة على ضوء حقيقة الملكوت، هي حقيقة يعيشها يوميًّا كلّ من اعترف بعمل الله في يسوع (٥: ١٤–١٦)، لأنّ في اعترافه رفضًا للقيم الاجتماعيّة السائدة في عالم الخطيئة (١: ٢١)، عالم الموت والظلمة (٤: ١٦).

في هذه التطويبات وصف لحاضر الطوبى من جهة، ولإمكانياتها المستقبليّة من جهة ثانية. هذا هو معنى طلب «ملكوت السماوات» الآن وتحقيقه الكامل في المستقبل؛ فبعد تأكيد حاضر الملكوت في حياة المؤمنين، تأتي المراجع الثلاثة عن «ملكوت السماوات» في ٥: ١٩–٢٠ لتلفت الانتباه إلى الاشتراك في البعد المستقبليّ لعمل الله. إنّ هذا الملكوت هو أيضًا مكانٌ يدخله كلّ من يحيا في الحاضر خبرة ملكوت الله وإرادته كما أعلنها يسوع، ويحصلون عليه عند انكشاف إرادة الله في المستقبل، لأنّ التجاوب مع دعوة الله، والمسؤوليّات التي تترتّب على ذلك هي أساس التلمذة.

في الصلاة الربّيّة (٦: ٩–١٣)، يذكّر الإنجيليّ جماعته بضرورة طلب إعلان الله لملكوته (ἐλθέτω ἡ βασιλεία σου، ٦: ١٠). في الحاضر عبر

الأعمال الإنسانيّة التي تتوافق مع إرادة الله، وفي المستقبل عبر تحقيق مشروع الله بصورة نهائيّة. إنّ مجيء ملكوت الله في الحاضر يعني علاقة حميمة مع الله ٦: ٩ب "أبانا"، وعمل لإرادته (٦: ١٠ب–ج)، وحصول على الضروريّ اليوميّ (٦: ١١)، وغفران الخطايا (٦: ١٢)، وحماية من الشرير (٦: ١٣)، فتكون النتيجة وحدة السماء والأرض، من خلال توافق حياة الأرض مملكة البشر، مع الحياة في السماوات حيث تسود وصايا الله وإرادته.

يختتم يسوع تعليمه حول القلق المتعلّق بالتملّك (٦: ١٩–٣٤) بمناشدة جماعته الابتعاد عن فهم الحياة بحسب نظرة الوثنيّين القائمة على الربح والتملّك المادّيّ، والاستسلام بثقة إلى عناية الله، والسعي إلى ملكوته (٦: ٣٣). إنّ طلب الملكوت يعني جعل حضور الله الخلاصيّ الهدف والأساس في الحياة اليوميّة، والتطلّع إلى تمام إرادة الله؛ فحضور الله الخلاصيّ هو خبرة حياة متحرّرة من القلق، متّكلة على الله القادر وحده على تأمين الحاجات الضروريّة. هذا ما يعيد المرجع الأخير في الخطبة (٧: ٢١) التذكير به (رج. ٥: ١٩–٢٠).

على عكس ما يقوم به الأنبياء الكذبة من أعاجيب، بعيدًا عن تطبيق إرادة الله (٧: ٢١)، يرتبط دخول ملكوت السماوات المستقبليّ والحصول على مكان فيه، بالعيش اليوميّ بإيمان وأمانة لملكوت الله وإرادته. إنّ في عدم ملاقاة ملكوت الله في الحاضر عدم مشاركة فيه في المستقبل.

الملكوت والمعجزات

في الفصلين ٨–٩ يتوسّع الإنجيليّ في ملخّص أعاجيب يسوع (٤: ٢٣–٢٤)، ليظهر تأثير ملكوت الله المحوِّل؛ ففي خبر شفاء خادم قائد المئة الوثنيّ (٨: ٥–١٣) تأكيد على أهمّيّة الاعتراف بسلطة يسوع، والإيمان بقوّته القادرة على الشفاء من الآلام، من جهة، وعلى أنّ التجاوب مع يسوع، وليس العرق أو الجنس (رج ٣: ٩)، هو ما يشكّل الجماعة التي تختبر الملكوت في الحاضر

والمستقبل (٨: ١١-١٢)من جهة ثانية. فإيمان قائد المئة الوثنيّ بيسوع (٨: ١٠، ١٣) مثال المشاركة في مشروع الله، يؤكّد من جديد المفاجأة المتمثّلة باستبعاد الورثة «الشرعيّين» الواثقين بأنّ الملكوت هو حقّ أوتوماتيكيّ.

في ٩: ٣٥ يكرّر الإنجيليّ ما أورده في ٤: ٢٣ من أقوال يسوع وأعماله، محبّة «بالبشر» (٩: ٣٦) «وإعلانًا وإرساءً» لـ«إنجيل الملكوت»، بشرى حضور الله وعمله الخلاصيّ. وفي إطار التعليم حول الرسالة (ف١٠) ١٠: ٧ أيضًا إعلانٌ وتكرار: كما يوحنّا (٣: ٢) ويسوع (٤: ١٧)، فعلى التلاميذ الإعلان أنّ «ملكوت السماوات»، حضور الله وعمله الخلاصيّ في يسوع، هو الآن بين البشر (رج. ٤: ١٩). ترافق كرازة الرسل أعمال يسوع بالذات التي تؤكّد وتكشف حضور الله الخلاصيّ (١٠: ٨؛ رج. ٤: ٢٤).

القسم السرديّ الثالث (١١: ٢-١٦: ٢٠)

في محور هذا القسم (١١: ٢-٦) التعرّف إلى هويّة يسوع: إنّه «من أرسله الله». يطرح يوحنّا السؤال المفتاح: هل يسوع هو المرسل من قِبَل الله (١١: ٣)؟ فيجيبه يسوع بالتركيز على الأعمال التي قام بها (التي وردت في القسم الثاني)، والتي من خلالها يمكن للشعب أن يتعرّف إلى هويّته (١١: ٤-٩). أمام هذه الحقيقة، هناك من يعترف بأنّ يسوع هو حضور الله الخلاصيّ (ملكوته)، فينال الطوبى (١١: ٦)؛ لكن هناك من لا يقبل هذا الحضور، وهو ما تدلّ عليه عبارة «الشكّ فيّ»، وهو ما ظهر من خلال ف٥-١٠ أنّ هذا ما يحصل.

يتوسّع هذا القسم الثالث (١١: ٢-١٦: ٢٠) في الانقسام الذي يحدثه ظهور «ملكوت السماوات» في كلام يسوع وأعماله؛ ففي حين يلتقي البعض، في يسوع، بحضور الله الخلاصيّ (١١: ٢٥-٣٠؛ ١٢: ٤٦-٥٠؛ ١٣: ١٠-١٧، ٥٨؛ ١٤: ٢٢-٣٣؛ ١٥: ٢١-٢٨؛ ١٦: ١٣-٢٠)، يبقى البعض الآخر (بعض المدن، والمسؤولون الدينيّون، والجموع) متمسّكين بعدم فهمه وعدم قبوله، ويعبّرون عن ذلك بالعداوة والرفض (١١: ١٦-٢٤؛

١٢: ١–١٤، ٢٢–٤٥؛ ١٣: ١٠–١٧، ٥٣–٥٨؛ ١٤: ١–١٢؛ ١٥: ١–١٢؛ ١٦: ١–١٢). تأتي الأمثال في ف ١٣ لإظهار هذا الانقسام وتقديم بعض التوضيحات حوله.

قبل ف ١٣، تظهر عبارة «ملكوت السماوات» مرّتين (١١: ١١، ١٢)، بالإضافة إلى عبارة تأتي بشكل مختلف: «ملكوت الله» (١٢: ٢٨). في العبارة الأولى تقديم لدور يوحنّا الانتقاليّ في علاقته بـ «ملكوت السماوات» (١١: ٧–١٩). إنّ يوحنّا هو النبيّ الذي شهد لملكوت الله في يسوع (٣: ١–١٢؛ ١١: ٩أ). هو أكثر من نبيّ، وصل إلى بداية ملكوت الله (١١: ١٢–١٣)، ويشترك مع إبراهيم واسحق ويعقوب في تمام مشروع الله (٨: ١١)، مع أنّ «الأصغر في ملكوت السماوات أكبر من يوحنّا»، لأنّه ليس متأكّدًا من أعمال الله في يسوع (رج ١١: ٢–٦). وتظهر آ ١٢ المعارضة العنيفة التي واجهت ملكوت الله ابتداء من يوحنّا؛ فجماعة الإنجيل تعرف أنّه وُضع في السجن (١١: ٢) بسبب شهادته لملكوت الله، وهي تعرف ما حذّر منه يسوع بهذا الخصوص (رج ١٠: ١٦–١٨، ٢٢–٢٥). إنّ الانقسام مرافق دائم لحضور الله الخلاصيّ.

ويتكرّر المشهد في تفسير الرؤساء الدينيّين لما يقوم به يسوع من طرد للشياطين، على أنّه بقوّة بعلزبوب (١٢: ٢٤؛ رج ٣٢–٣٤). يبدو هؤلاء المسؤولون غير قادرين على تمييز عمل الله في يسوع؛ إنّهم يفكّرون بالسوء (٩: ٤؛ رج ١٢: ٣٤–٣٥، ٣٩، ٤٥)، مع أنّ يسوع أظهر أمانة الله بوضوح من خلال رفضه محاولات الشّرير لقيادته (٣: ١٣–١٧؛ ٤: ١–١١)، وفي طرده للشياطين، وإعلانه إثر ذلك حضور ملكوت الله (٤: ١٧). وفي ملاحظته أنّ «كلّ مملكة تنقسم على ذاتها تخرب» (١٢: ٢٥)، إرساء لبطلان ما يقولونه؛ فكيف يمكن أن يدمّر يسوع مملكة الشيطان بقوّة الشيطان (ἡ βασιλεία αὐτοῦ ٢٦: ١٢). إنّ يسوع هو رسول الله، وبقوّة الله يحقّق الأعمال التي تخلّص من سلطة الشيطان ومملكته المهلكة. إنّه حضور الله الفاعل والقويّ،

وملكوته الذي يحرّر الشعب من ملك الشيطان (١٢: ٢٨).

في الخلاصة، عَمِل الإنجيليّ على قيادة جماعته خطوة خطوة في مسيرة نحو الفصل الثالث عشر، بحيث فهمت هذه الجماعة التحدّي المتعلّق بـ«ملكوت السماوات»؛ فإن كان رمز «ملكوت السماوات» يعني إرسال الله ليسوع ليُظهِر الخلاص الإلهيّ، من جهة، وحضور الله الذي يغيّر أحوال البشر (١: ٢١، ٢٣) بكلام يسوع وأعماله (٤: ١٧–٢٥؛ ١١: ٢–٥)، من جهة ثانية، فلمن يتوب ويتبع يسوع (٤: ١٧–٢٢)، ولمن يعيش الصعوبات (٥: ٣)، ولمن يؤمن بيسوع (٨: ٥–١٣)، فإنّ ذلك يعني الطوبى، وعيش حضور الله في الحاضر، والسعي إلى الاشتراك فيه في الدينونة الأخيرة. إنّ حضور ملكوت الله يخلق قلقًا، ويعيد تصويب الوجود الإنسانيّ (٤: ١٨–٢٢)، لأنّه حضور يخلق أوّلويات جديدة، وأهدافًا جديدة، وخيارات حياتيّة تخالف التيّارات العالميّة الطاغية (٦: ١٩–٣٤). هو حضور يحرّر الناس من سلطة الشرّير، ويخلق جماعة محبّة (٤: ٢٣–٢٤؛ ٩: ٢٣–٣٤؛ ١٢: ٢٨)، لكن هذا ما يتسبّب لهؤلاء المؤمنين بالاضطهاد (٥: ١٠–٢١؛ ١١–١٢). أمّا رفض كرازة يسوع فهو رفض لملكوت الله ومواجهة لحكم الدينونة (١٠: ٣٢–٣٣، ٤٠–٤٢).

مت ١٣ وأمثال[٦] «ملكوت السماوات»

تشكّل الأمثال أحد الأساليب التربويّة التي استعملها يسوع للتعليم. لم

(٦) ما هو المثل بالتحديد؟ تظهر الكلمة العبريّة «مَشَل» في ١٧: ٢، وقد ترجمت «مثل» في كتاب الأمثال، وتعود إلى مقابلة أو تشبيه بهدف تعليميّ. في العهد الجديد، استعملت الكلمة اليونانيّة παραβολὴ للدلالة على رمزيّة أو تشبيه. في عب ٩: ٩ استعلمت الكلمة في شرح الكاتب أنّ كلّ ما في المسكن / الهيكل ما كان سوى παραβολὴ، «رموز» تدل على مخطّط الله الخلاصيّ.
عندما كان يسوع يعلّم الجموع عن ملكوت الله / ملكوت السماوات، كان يستعمل بشكل شبه حصريّ أمثالاً كهذه، أي رموزًا وتشابيه. ظنّ العديدون بأنّه استعان بهذه الأمثال لتوضيح تعليمه للجموع، لكنّ الكتابات تقول العكس (مت ١٣: ١٣)؛ فللتلاميذ وحدهم أعطى يسوع التفسيرات الواضحة ليمكّنهم من فهم ما يتعلّق بالملكوت (آ١٠–١١). كلّ مثل من أمثال يسوع يُقدّم درسًا محدَّدًا؛ فالملكوت موضوع واسع جدًّا، ومن غير الممكن حصره في تشبيه واحد. إنّ التشابيه المتعدّدة تساعد على الإحاطة بمظاهره المتعدّدة.

يخترع يسوع هذا النمط التربويّ، لكنّه استعمله بوفرة ليشرح ويقرّب الحقائق الإلهيّة من الفهم البشريّ. يأخذ المثل عناصره وصوره من الحياة اليوميّة والتصرّفات البشريّة أو من الطبيعة. لكنّ القصّة التي يتناولها المثل والتي تبدو بسيطة وسهلة الفهم، تضع الذهن أمام تحدٍّ أكيد؛ فهي تلفت الانتباه وتثير التفكير بحيث تصل إلى هدفها إن بقي السامعون أمام بعض العناصر الغامضة.

يبدو الفصل الثالث عشر وكأنّه محور القسم السرديّ الثالث (١١: ٢–١٦: ٢٠)، يأتي ليشرح انقسام إسرائيل الواضح تجاه اعتلان حضور الله الخلاصيّ في يسوع (١١–١٢)، من جهة، ولينشّيء التلاميذ، على كيفيّة عيشهم هذا الحضور الآن وحتّى الدينونة، من جهة أخرى.

في كلّ ما سبق عرض الإنجيليّ أنّ حضور «الملكوت في العالم» هو محور إنجيله. تأتي الآية الأولى من ف ١٣ «في اليوم عينه» لتربط هذا الفصل بما سبق من كلام حول عائلة يسوع الحقيقّة (١٢: ٤٦–٥٠)، وبجداله مع المسؤولين الدينيّين حول «ملكوت السماوات» (١٢: ٢٢–٤٥). نجد في هذا الفصل العدد الأكبر من استعمالات عبارة «ملكوت السماوات» في الإنجيل. تظهر العبارة ثماني مرّات (١٣: ١١، ٢٤، ٣١، ٣٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٥٢)، إضافة إلى استعمالات كلمة «الملكوت مع اختلافات في التعبير، فنقرأ عبارات: «كلمة الملكوت» (١٣: ١٩)، و«أبناء الملكوت» (١٣: ٣٨؛ رج ٨: ١٢)، و«من ملكوته» (١٣: ٤١)، و«في ملكوت أبيهم» (١٣: ٤٣).

غالبًا ما يجمع الإنجيل بحسب القدّيس متّى التعاليم المختلفة المتعلّقة بموضوع واحد. إنّها الحال في مت ١٣ حيث يجمع الكاتب سبعة أمثال عن الملكوت، لا يذكر منها مرقس سوى ثلاثة، في حين لا يأتي لوقا سوى على ذكر واحد منها.

تركّز بداية الفصل ١٣ الانتباه على ظهور ملكوت الله في الحاضر، ولكن، وكلّما تقدّم الفصل، كلّما تحوّل الانتباه إلى أهداف الله المستقبليّة.

يصف المثل الأوّل (الزارع والحَبّ ١٣: ٣–٩) اعتلان ملكوت الله في

كرازة يسوع، وقبوله الذي يترواح بين الإيجابيّ والسلبيّ. أمام المثل يتوجّه التلاميذ إلى يسوع للاستفهام حول سبب استعماله للأمثال في تعليمه. من خلال هذا التساؤل، يعلن الإنجيليّ لجماعته أنّ الأمثال تؤكّد الفصل بين فهم التلاميذ الذين تلقّوا اعتلان عمل الله في يسوع، وبين الشعب الذي لا يسمع ولا يفهم (١٣: ١٠-١٧). في المثل جعل يسوع من المؤثّرات السلبيّة والإيجابيّة التي تساعد أو تعيق التجاوب مع إعلان يسوع لحضور الله الخلاصيّ - كلمة الملكوت، العناصر الأساسيّة (١٣: ١٨-٢٣). فهمت جماعة الإنجيل أنّ العديدين ممّن سمعوا يسوع وتلاميذه لم يهتمّوا، في حين استقبل آخرون البشارة بحماس لم يثبت ولم يتعمّق، فجفّ حماسهم سريعًا؛ أمّا البعض الآخر فثابروا أكثر، ولكنّ نموهّم الروحيّ اختنق بفعل تأثير العالم؛ لكنّ قسمًا ضئيلاً من الزرع استطاع النموّ والنضوج وإعطاء الثمر الوفير.

بعد ذلك يقدّم متّى كيفيّة تعايش «ملكوت السماوات» ومعارضيه في العالم إلى حين الدينونة (١٣: ٢٤-٣٠). يزرع السيّد زرعًا جيّدًا في حقله، لكنّ عدوًا يأتي ويبذر زؤانًا مع القمح أثناء نوم السيّد. وعند نموّ الزرع وأثماره، وُجد القمح والزؤان في الحقل عينه. والزؤان، كما هو معلوم، شبيه جدًّا بالقمح في بدايته، لكنّه لا يثمر أبدًا. يطلب السيّد من خدّامه عدم نزع الزؤان، لأنّ جذور الزرع لا بدّ وأن تكون متداخلة، فيقتلعون القمح باقتلاعهم الزؤان، ويأمرهم بانتظار الحصاد حيث يمكن جمع الزؤان وحرقه، في حين يُجمع القمح ويحفظ في أهراء السيّد. هنا أيضًا نجد في المثل رمزًا يدلّ على تفاعل الناس مع كرازة الملكوت. الزرع لن يثمر في غالبيّته، بل سيجفّ بسبب الاضطهادات، أو سيختنق بسبب هموم هذا الدهر. قلّة منه تنمو حتّى الحصاد، لكنّ بعضه، وقد ظنّ أنّه من المؤمنين الصالحين، سيظهر أنّه زؤان زرعه الشرّير في حقل الربّ. هذا ما كان واضحًا في القرن الأوّل، أنّ كلّ من كانوا في الكنيسة لم يكونوا زرعًا إلهيًّا. كثيرون هم الذين لم يصلوا إلى حالة روحيّة تدخلهم في شراكة الملكوت.

ويعرض مَثَل حبّة الخردل (١٣: ٣١–٣٢) طبيعة عمل الله في المستقبل، ويعارضه ظاهر رسالة يسوع الحاضرة. هو ما يعود ليكرّره ويوسّعه في مثل المرأة والخميرة في العجين (١٣: ٣٣). إنّه التعارض الجوهريّ بين ظاهر الحاضر، وما ينتظر المؤمنين في النهاية؛ ففي تفسير مَثَل الزؤان (١٣: ٣٦–٤٣) عرضٌ لواقع الملكوت. خَلَق حضور الله الخلاصيّ في يسوع جماعة تلاميذ هم «أبناء الملكوت» (١٣: ٣٨)، كما خلق معارضة إبليس لملكوت الله، لكنّ إرادة الله وأهدافه النهائيّة ستظهر بكامل مجدها في الدينونة المستقبليّة. هذا ما يؤكّده مثل حبّة الخردل، أصغر حبوب الحقل التي تظهر في النهاية شجيرة قادرة على إيواء الطيور. هذه هي صورة الملكوت الذي يظهر الآن قليل الشأن لا أهمّيّة له، والذي سيظهر في النهاية على حقيقته، عظيمًا مجيدًا (آ ٣١–٣٢)، تمامًا كما يعلن مثل الخميرة الصغيرة التي تحوّل كلّ العجين الكثير لأنّها تتغلغل في كلّ مكان لتغيّر الموجود، دون ضجّة ولا قوّة أو إكراه. وكما كرازة يسوع – الملكوت، ستنمو كرازة تلاميذه، جماعة الإنجيل الذين يعيشون في بقعة معزولة مغمورة في الأمبراطوريّة الرومانيّة، لتعمّ الأرض كلّها.

وفي مَثَلَي الرجل الذي وجد كنزًا (١٣: ٤٤)، والتاجر الذي اشترى لؤلؤة (١٣: ٤٥–٤٦) إضاءة على أهمّيّة البحث عن الملكوت، والفرح الذي ينتج عن إيجاده. إنّ الملكوت هو كالكنز المخبوء في حقل، وقيمته تستحقّ أن يبيع من وجده كلّ ما يملك ليحصل عليه (آ ٤٤). إنّ من يجد هذا الكنز قادر على تقديم كلّ التضحيات للحصول عليه. إنّه كنز تفوق قيمته كلّ ما يمكننا اقتناؤه، على ما يؤكّد مثل اللؤلؤة. أمّا المثل الأخير حول الشبكة التي تجمع كلّ نوع من السمك فهو صورة تستبق حقيقة الدينونة التي يُطلب فيها من كلّ إنسان حسابٌ عن مسؤوليّاته (١٣: ٤٧–٥٠). يعرف الصيّادون، وبعض أعضاء الجماعة المتّاويّة منهم، أنّ الشبكة متّى امتلأت يمكن فرز ما فيها على الشاطئ، فيُرمى ما لا يمكن الإفادة منه ويُحفظ الباقي.

إنّها صورة الدينونة في آخر الأزمنة. الملكوت الحاضر في يسوع لم

يكتمل بعد: الزرع لم يُعطِ بعد المئة حبّة، وحبّة الخردل لم تصبح بعد شجرة، والخميرة لم تخمّر بعد العجين كلّه. صحيح أنّ الملكوت حاضر هنا بيسوع المسيح منذ الآن، لكنّ الحصاد ليس لليوم، وطوبى «لعيونكم لأنّها تبصر ولآذانكم لأنّها تسمع» (١٣: ١٦). زرع الزارع بوفرة في كلّ أنواع الأرض، فكان له الفشل حينًا لأنّ الطيور أكلت منه، ويبس بعضه، واختنق بعضه الآخر، لكنَّ وعد الحياة والوفرة لا زال قائمًا، ولا بدّ للحياة من الانتصار، والثمر الوافر ثلاثين وستّين ومئة لكلّ حبّة هو شيء مؤكّد.

مت ١٣: تذكير وتأكيد وتجديد لمعنى سرّ الملكوت

من الواضح أنّ أمثال «الملكوت» هي فعليًّا عودة إلى عناصر كان سبق للكاتب أنّ استعملها في الفصول الإثني عشر الأولى حول «ملكوت السماوات»، للتذكير بها وتأكيدها وتوسيعها.

فهي أوّلاً تذكير بأنّ الملكوت حاضر في تعليم يسوع وفي أعماله (١٣: ٣–٨؛ ١٨: ٢٣، ٢٤، ٣١، ٣٣، ٣٧–٣٨، ٤٤، ٤٥–٤٦، ٤٧؛ رج ٣: ٢؛ ٤: ١٧–٢٥؛ ٥: ٣–١٠؛ ١١: ١١–١٢؛ ١٢: ٢٨)، وأنّ هذا الملكوت يعني حياة أفضل، وأوّلويات جديدة، وقيمًا مختلفة، وجماعة جديدة تشهد للحضور المغيّر والمحوِّل.

وهي ثانيًا تأكيد بأنّ حضور «ملكوت السماوات» يعبّر عن عمل الله، وأنّه نتيجة لمبادرته الشخصيّة (رج ١: ١٨–٢٥)؛ فيسوع يعلن عن حضور الله لأنّ الله أرسله لذلك (١٣: ٣، ١١، ١٦–١٧، ٢٤ ٣١، ٣٣، ٣٤–٣٥، ٣٧). صحيح أنّ البشر يبحثون عن ملكوت الله ويكتشفونه (١٣: ٤٤–٣٦؛ رج ٧: ٧–١١)، لكنّ هذا الملكوت يبقى عمل الله الخالق وعطية مجّانيّة لاعتلانه (١٣: ١١، ١٦؛ رج ١١: ٢٥–٢٧).

والأمثال ثالثًا تذكير بتأثير حضور الملكوت المصيريّ. آمن البعض به وقبلوه (فهموا)، في حين لم يفعل البعض الآخر (١٣: ٣–٨، ١٠–١٧،

١٨–٢٣، ٤٤، ٤٥–٤٦؛ ف ٥–١٠، ١١–١٢). من هنا التذكير، رابعًا بأنّ المشاركة في الملكوت تتطلّب أن يستثمر المؤمنون كلّ شيء في حياتهم على هذا الأساس: «باع كلّ ما يملك واشتراه» (١٣: ٤٤–٤٥)؛ فقبول الملكوت يعني رفض كلّ ما كان يُعتبر قيمًا وأوّلويات سابقة، والانفتاح على نوعيّة حياة جديدة. وفي إيراد خبر دعوة التلاميذ الأوائل (٤: ١٨–٢٢) الذين تركوا أعمال العائلة في بداية الإنجيل، إضافة إلى التعليم المرافق في ف ٥–٧، إرساء لأسس هذه الحياة. وتذكّر الأمثال خامسًا بأنّ ملاقاة «ملكوت السماوات» يعني الثبات في هذه الحياة الجديدة، بالرغم من معارضة الشرّير، وذلك حتّى اكتمال إرادة الله (١٣: ٥–٨؛ ٢٠–٢٣، ٣٠؛ كما في ف ٥–٧؛ ١٢: ٤٦–٥٠). إنّ عيش أوّلويات الملكوت وقيمه تعني معارضة قيم المجتمع. من هنا تذكّر الأمثال سادسًا بأنّ حضور الملكوت لا يقتصر على إعطاء الفرح وحسب (١٣: ٢٠، ٤٤؛ رج ٢: ١٠)، لكنّه يستتبع أيضًا معارضة الشرّير وشركائه (١٣: ١٩، ٢٥، ٣٨–٣٩؛ رج ٤: ١–١١، ٢٤؛ ٨: ٢٨–٣٤؛ ١٢: ٢٢–٣٢). إنّ ملكوت الله، والجماعة التي وُجدت بقوّته، يتعايشان في الحاضر مع سلطة الشرّير (رج ١٣: ٢٦–٣٠، ٣٧–٤١؛ رج ١٢: ٢٥–٢٨).

أمّا النقطة السابعة التي يُذكّر بها مَثَلا حبّة الخردل والخميرة (١٣: ٣١–٣٤)، فهو الظاهر العاديّ الذي يبدو عليه الملكوت في الحاضر؛ فحضور الله الخلاصيّ لم يقترب من خلال قوّة هادمة قاهرة للشرّير (رج ١٣: ٢٤–٣٠)، بل من خلال كلام يسوع وأعماله (٤: ١٧–٢٥؛ ١١: ٢–٦). لم يعترف البعض بحضور الله فيه (٨: ٥–١٣؛ ٩: ٣–٤، ٣٢–٣٤؛ ١٠: ١٤–٣٣؛ ١١: ١٦–٢٤؛ ١٢: ١–١٤، ٢٢–٣٢)، لكنّ جماعة الإنجيل تعرف تمامًا صورة حبّة الخردل الصغيرة وصورة خميرة ملكوت الله، التي تغيّر وتحوّل بالرغم من كثرة عدد غير المؤمنين. وتذكّر الأمثال أخيرًا باكتمال إرادة الله في المستقبل وتؤكّد عليها، بالرغم من ظاهر الحاضر المتواضع وتعاظم المعارضة (١٣: ٢٤–٣٠، ٣١–٣٣، ٣٦–٤٣، ٤٧–٥٠). إنّ إرادة الله في خلاص البشر من الخطيئة ستكتمل في

الدينونة الكونيّة التي ستنصف الأبرار وتدين الشرّير وشركاءه. هذه الدينونة ستطال إسرائيل، وكلّ الأمم (رج ١: ٥-٦؛ ٢: ١-١٢؛ ٨: ٥-١٣)، وستطال الكنيسة أيضًا، تمامًا كما طالت أعمال يسوع جميع الذين قبلوه. ترتبط مسؤوليّة البشر أمام الله بتجاوبهم مع حضوره الخلاصيّ - ملكوته بيسوع المسيح (٣: ١١-١٢؛ ٧: ٢١-٢٧؛ رج ١٣: ٢٤-٣٠).

خاتمة

ليس الملكوت شبيهًا برجل أو بخميرة أو بشبكة، بل بعملٍ ما؛ هو ليس مكانًا في السماء، بل هو المكان الذي يأتمر بوصايا السماواتٍ؛ إنّه ما تديره السماوات. في فكر متّى ليس الله في السماء، بل السماء هي حيث يقترب الله من الإنسان؛ إنّها حيث يأتي الله هذا العالم. هذه الأمثال هي كلام عن مجيء الربّ اللامُنتَظر والمفاجئ إلى العالم، وعن التغييرات التي يُحدثها بحضوره المحرِّر في الحياة الشخصيّة والجماعيّة. في كلامنا عن الملكوت، نحن نتصوّر مساحة في الزمان والمكان. هذا ما تحاول الأمثال تصويبه، فلا تذكر شخصًا أو حالة، أو مكانًا محدَّدًا، بل حدثًا وعملاً يُظهر سيادة الله.

ارتبطت كرازة يسوع بخطّ انتظارات البيئة اليهوديّة لظهور سيادة الله والصلاة من أجل ذلك؛ فموضوع الملكوت الذي لم يكن سوى موضوع انتظار لنهاية الأزمنة، تحوّل مع يسوع إلى موضوع رسالته الأساسيّ: «توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات» (مت ٤: ١٧). على عكس انتظارات الغيورين، لا ينطوي كلام يسوع عن الملكوت على أيّ تشاؤم، وعلى عكس انتظارات الرؤيويّين، لا يمكن تحديد زمانه (مت ٢٤: ٣٦). وبعيدًا عن أيّ صرخة حربيّة، وعن أيّة دعوة لإرساء الملكوت بالقوّة، يعلن يسوع أنّ مجيء الملكوت هو بداية لإمكانات حياتيّة جديدة. وفي حين كان مفهوم الملكوت عند الفرّيسيّين محصورًا في عبارات محدّدة، توسّع يسوع في هذا المفهوم ليجعل من مواقفه وأعماله وتعليمه تحقيقًا عمليًّا حياتيًّا لهذا الملكوت.

بالرغم من اختلافاتهم، اتّفق الغيورون والفرّيسيّون والرؤيويّون على أنّ الملكوت هو مستقبليّ، أمّا عند يسوع فالملكوت حاضر منذ الآن: «وافاكم ملكوت الله» (١٢: ٢٨)؛ لكنّه مستقبليّ أيضًا: «الحَقَّ أَقولُ لَكم: إِن لم تَرجِعوا فتَصيروا مِثلَ الأَطفال، لا تَدخُلوا مَلكوتَ السَّمَاوات» (١٨: ٣). قد تمّت الأزمنة لأنّ الله دخل الزمن، فدخل المستقبل في الحاضر، وانفتح الحاضر على المستقبل.

حضّر الإنجيليّ جماعته منذ البدء على انتظار اكتمال إرادة الله المجيدة (٣: ١١؛ ٧: ٢١–٢٧؛ ٨: ١٠–١٢؛ ١٠: ٣٢–٣٣)، كما حضّرها وأكّد لها أنّ يسوع هو من يحقّق إرادة الله (١: ١٨–٢٥)؛ فمولده أقلق الملك وكلّ أورشليم (٢: ٣)؛ ومع أنّ الأغراب جاؤوا ليعبدوه (٢: ١–١٢)، فقد تسبّب حضوره بالمعارضة والرفض والموت (٢: ١٣–٢٣). وتبعه الشعب من كلّ الجليل واليهوديّة وعبر الأردن (٤: ٢٥)، «جموع كثيرة» (٨: ١) شفيت (٨: ١٦؛ ٩: ٣٥–٣٦)، ومجّدت الله (٧: ٢٨–٢٩؛ ٩: ٨)، ودُهشت (٩: ٣٣). وقد علّم تلاميذه الصلاة حتّى يُرسل الله عمّالاً أكثر للحصاد الكثير (٩: ٣٧–٣٨)، وأوكل إلى تلاميذه رسالة (ف ١٠)، حتّى أدّى حضوره إلى إقلاق المسؤولين الدينيّين الذين تآمروا لقتله (١٢: ١٤)[٧].

فلمن يجدون بأنّهم أقلّيّة لا شأن لها، يردّ متّى بأنّ الملكوت حاضر في يسوع ولو كانت مظاهرة صغيرة جدًّا. ولمن يقولون بأنّهم هامشيّون في بقعة مغمورة من هذه الإمبراطورية، وفي خضمّ عالم مناوىء وشرّير، يجيب متّى بأنّ مكان هذا الملكوت هو أيّ مكان (حقل، تربة، بحر، عجين)؛ إنّه عالمنا الذي يحتوي دومًا ما هو إيجابيّ. إنّه ملكوت منفتح على كلّ الإمكانيّات. الخير

(٧) أمّا عن أسباب هذا الرفض فتقدّم الأمثال أربعة أفكار تشرح سبب عدم انضمام الشعب إلى ملكوت يسوع؛ فهم لم يقبلوا الملكوت، ولم يتعرّفوا إلى عمل الله الفاعل في يسوع (١٣: ٢٤–٣٠، ٣١: ٣٤؛ ٩: ٣٢–٣٤؛ ١٢: ١٦–٢١، ٢٢–٣٤)، لأنّ الله لم ينكشف لهم (١٣: ١١، ١٦، ٣٥؛ رج ١١: ٢٥–٢٧)؛ لأنّهم ذوو آذان لا تسمع، وقد التزموا بشراكة الشرّير (١٣: ١٥، ٢١–٢٢؛ رج ٦: ١٦–٣٤؛ ١٢: ٢٢–٤٥)، ممّا يعني بأنّ الشرّير هو من يعيق عمل الله (١٣: ١٨، ٢٥، ٣٩؛ رج ٤: ١–١١).

موجود ولو كان نسبيًّا، تحت شكل حبّة هي أصغر الحبوب، أو تحت شكل رجاء على مثال رجاء الزارع والصيّاد والباحث عن الكنوز. لكن الشرّ أيضًا موجود؛ فالزؤان ليس غائبًا ولا الأسماك السامّة. إنّ في انتظار الزارع والمرأة والباحث عن اللآلئ دلالة على عدم الاكتمال.

ولمن يقول بأنّ هذا الملكوت خفيّ، ومن الصعب إيجاده، يقول الإنجيليّ: صحيح، لأنّ الملكوت هو ديناميّة دائمة. إنّه شبيه برجل يزرع، وبحبّة تنمو، وبعجين يختمر، وبرجل يبحث، وبشبكة تمتلئ؛ لكنّه أيضًا حقيقة أكيدة. هو كالكنز المخبوء في حقل، موجود إن بحثنا أو لم نبحث، إن وجدناه أو لم نجده، إن علمنا بوجوده أو لم نعلم. إنّه مخبوء في عمق كياننا الإنسانيّ، وفي الكون الذي نحن جزء منه. إنّه النعمة اللامنظورة الحاضرة.

غريب أمر هذا الملكوت. باع من وجد الكنز كلّ شيء واشترى الحقل، وكأنّه من غير الممكن فصل الكنز عن الحقل، أو كأنّه لا يمكن استخراج هذا الكنز من أرضه. إنّ الأرض كلّها هي الكنز ولا يمكن إلاّ شراؤها، ولو كلّفت التضحيات الجسام. وهكذا، فإنّ الملكوت هو حقيقة تسكننا كما نحن؛ إنّه حقيقة ثابتة لا تتزعزع. لكنّ هذا الكنز لن نجده إلاّ إذا بحثنا عنه، تمامًا كما التاجر الباحث عن اللآلئ الكريمة، وبين هذه اللآلئ الكثيرة العدد سيجد اللؤلؤة الثمينة. إنّ الملكوت هو ديناميّة دائمة، وفي كلّ الحالات يمكن للمؤمنين أن يجدوا طريقة خلاّقة للعمل: حبّة صغيرة، خميرة بسيطة. الملكوت تيّار حضور دائم خلاّق يجعل من العالم حياة في طور الخلق اليوميّ والنموّ الدائم.

بالمحصّلة، تبدو أمثال ف ١٣ تكرارًا لما سبق وأعلنه الإنجيل حول «ملكوت السماوات» قبل الوصول إلى فصل الأمثال (مت ١٣) الذي يأتي ليكرّر ويوكّد، وكأنّه يقدّم لجماعة الإنجيل تحدّيًا لتجديد التزاماتها الإيمانيّة في خضمّ ما تحياه من صعوبات، ولإعادة طرح التساؤلات صعبة؛ فأن يكون الإنسان تلميذًا لملكوت السماوات هو ديناميّة دائمة، تحوّل وتُقلق وتدعو إلى التغيير، لأنّ ذلك يتطلّب أن يحيا التلميذ هذه الحقيقة في يوميّاته في زمن «ما

بين» دعوته ومستقبل تحقيق إرادة الله فيه. لكنّ تعليم يسوع ليس أخلاقيّات موجّهة إلى من ينتظرون نهاية العالم قريبًا، بل لمن اختبروا نهاية «هذا العالم» ومجيء «ملكوت الله» فيه ليغيّره ويحوّله إلى عالم جديد.